زين العابدين الحسيني

عندما تبكي الالوان ...

١ ـ المهـزوم

من تحت الغطاء ، اخرجت يدها ، قالت في ضراعة . « امسك يدي » . كانت الهالتان قد اتسعتا حول العينين العسليتين المبرقشتين .

بللت شفتيه حبات العرق التي راحت تتفازر علـى جبينهـا . لامس وجهه وجهها ، ضغطت على يده برفق : همس : « متى علمت يدك ان تقول كل هذا ؟ » . بدت لـه بالفـة العذوبة في شحوبهـا .

راحت تزرع نظراتها في عينيه ، فانهمرت كل الاشياء الصغيرة ، وغدت اكثر رقة ، همست :

ـ « تحبنـي ؟ »

هز رأسـه

بذلت جهدا ، كيما تبتسم .

ضمرت الابتسامة . تغضّن الوجه الطفولي ، اغمضت عينيها ، قالت :

ـ « ستتخلصون من الطفل ؟»

شدّت جفنيها بقوة ، فتدحرجت الدموع .

ـ « لمـاذا ؟ »

انهمر حزن ابوي داخله« كيما تعيشين انت »

علا صوت بكائها .

ـ « لمـاذا ؟ »

راح يمسح بكلتا يديه دموعها ،

ـ « لا تبكي ... ارجـوك »

قالت : « بل يجب ... يجب ان افعل .»

تحول البكاء الى نهنهة .

ـ « كم سيستغرق ذلـك ؟ »

ـ « ليس طويـلا »

ـ « كـم »

ـ « اقل من ساعـة »

ـ « عدني بشيء اذن »

ـ اعـدك .

ـ عندما ننتهي من كل ذلك ، عدني ان نمضي بعيدا مـن هنا ، نسافر ، نذهب الى جميع الامكنة المجهولـة ، حيث الناس المجهولون ، حيث لا نعرف احـدا ولا يعرفنـا أحد .

ـ سنفعـل

غرقت عيناها في فرح طفولي .

ـ ونصنع طفلا جديدا .. ونكمل معا كل الاشياء التـي ارجأناهـا .

ـ اجل ، سنكمل معا كل الاشياء التي ارجأناها .

ـ عدني ان لا نرجيء شيئا بعد ذلك ..

ـ لن نرجيء شيئا بعد ذلك ..

ـ و ... تواصل هداياك الكثيرة الي ..

ـ واواصل هداياي الكثيرة اليك ..

ـ ونكبر .. نكبر ، ونهرم معا ..

ـ ستظلين انت ، صغيرتي الحلوة ..

ـ بل سنكبر ، عدني باننا سنكبر ، سنهرم معا ..

ـ انت تبكيـن !!

مدت اصابعها الدقيقة الشمعية ، وراحت تمسح دموعه:

ـ « وانت ... انت تبكي »

لمست شفتاه رموشها .

اغمض عينيه ، تذكرها حبيبة بضفيرتين ، وبردائها المدرسي ذي المربعات الوردية الصغيرة ، وصوت صديقه « اتصورهـا دائما حبيبة ، فلا تجعلها أما .»

. . .

. . .

تشبثت نظراتها به وهم يدفعون بعربتها الى غرفـة العمليـات ، غمغمت :

« انا خائفـة »

ابتسم الطبيب . « لن يستغرق هـذا طويـلا .. ستعودين اليه قبل ان يبدأ بالاشتياق اليك » .

جالت عيناها الطفلتان في عينيه ، تتحريان الصدق : « أصحيح ؟ »

ضغط على يدها . « سأكون في غايـة الشوق ، تعرفين ذلـك »

توسلت وهي تتمسك بيده « اريده . اريـده ان يظـل معـي »

قال الطبيب : « سيظل ، لكن خارج غرفةالعمليات »

ارخت يدها من يده .

تطلعت اليه في عتاب ممزوج باليأس ، ممـزوج بالبكاء ، ممزوج بالحزن . قبـل جبينهـا .

عاوده صوت صديقه « اتصورها دائما حبيبة »

اغمض عينيه ، فيما كانت الممرضة تغلق البـاب المؤدي لغرفة العمليـات .

. . .

. . .

في البداية كان انتظارا ،

ثم تراكم ليغدو قلقا،وحين تعالت الضجةفي الداخل، تحول كل ذلك الى بدايـة انهيار .

« رأى اطباء يقتحمون،وممرضون يهرولون ،واكياس حمراء ، وعربات بيضاء .

ثم انه سمع صوتا ـ وهو فيما يشبه حالة الاغماء ـ يقول ، اصابوا مولد الكهرباء وانقطع التيـار .. وتوقف قلب المريضة ، تـوقف قلب المريضـة ، توقف قلب ، توقف ... »

وفيما كانت قبضتاه تدقان بوحشية الجدار وصراخه يدوي في ردهات المستشفى ...

لا .. لا .. لا .. ، كانت القذائف ما تزال تنهمر بشراسـة في الخارج .

حزيران ٧٦ ـ بيروت

* * *

٢ ـ المشاجـرة

قالت وهي تضع باقة الزهور في الاناء : « لم اسمع من قبل ان اسعار الزهور تنخفض في الحروب الا فـي هـذه الحرب » .

قال : « عندما يصبح الموتامرا عاديا يفقد الناس حماستهم للذهـاب للمقابر » .

قالت : « هذا خراب لبائعي الزهور » .

راحت تتأمل الزهور ،« منذ كم لم يحمل اليهازهورا؟»

دست انفها في الباقة ، قالت في امتعاض ،

« انها اقرب الى الزهور الصناعية »

قال : « تبدو جميلة ، لكنهـا بدون رائحة »

قالت : « احب الزهور ذات الرائحة »

قال : اعرف ، ولكن هذا ما وجدته »

قالت : « انت دائمـا ، هكذا .. »

احتلت وجهه كآبة خفيفة ، مضى الى الغرفة .

صاحت : « لماذا لم تجب ؟ »

ظل صامتا ، بدأ يخلع ملابسـه .

واصلت حديثها : « الوجه العابس لي .. والوجـه الاخر ...

تمدد على السرير .

صاحت في انزعاج ... : « هل ستنام ؟ »

اغمض عينيه .

واصلت هي : « ما عدت احتمل »

همس وهو مغمض العينين : « ولا انا ... »

هتفت في غضب مستطلع : «ماذا قلت ؟ »

وضع وسادة صغيرة على وجهه . سمع خطواتهـا تدق الارض بعصبية : « ابعد هـذه الوسادة عـن وجهـك » .

غمغم : « اريد ان انام » .

هرعت الى دولاب الملابس ، بدأت تخلع وترتدي ..

صاحت بعد فترة : « سأخرج لاريح اعصابي » .

« ود ان يزيح الوسادة عن وجهه ، وان يضع حدا للمشاجرة ويجلسها الى جواره ، ويتضاحكان ثـم يطلب اليها ان تغمض عينيها ليضع السلسلة الذهبية حول عنقهـا .. »

وكانت بدورها تتمنى لو ان تتوقف عن الاستمرار في الحديث ، لكن نبرة صوتها كانت لا تزال غاضبـة حين قالت : « انا خارجة .. هل تريد شيئا ؟ »

صدمت بعنف اذ سمعته يقول : « لا .. لا شيء . »

رغم خلو الشارع واصلت السير وفيما هي توشك ان تنتقل الى الرصيف الاخر ، تذكرت انه اليـوم الثالث والعشرين من نيسان ذكرى لقائهما الاول .

وفيمـا هي تهم بالعودة ، والدموع تترقرق مـن عينيها ، اقتحمتها كتلة حديدية وانطلق من جوفها شلال رعب خاطف .

وفيما كان اللون الوردي يفيض من وجهها الىالابد. ارتعش جفناها فانهمرت دمـوع غزيرة من العينيـن العسليتين في حين ظل جسدها ساكنا تماما .

بيروت ـ تموز ١٩٧٦

* * *

٣ ـ الوهـــم

وضعت وسادتين سميكتين خلف ظهرها ، تشبثت اصابعهـا بالكأس ، راحت تنصت للاغنيـة ذات الايقـاع البطيء الحزيـن ..

تزايد احساسها بالضجر ، فيما كان الظلام يهطـل بكثافـة في الخارج والداخل .

« يجب ان يأتـي »

ارتشفت جرعة كبيرة من الكأس ، ثم امتصت بنهم سيجارتهـا .

« يمضي العمر ونكتشف ما كـان علينا ان نكتشفه بعـد فـوات الاوان » .

مدت اصابعهاعبر الظلام الكثيف لترفع صوت الجهاز، وبدا واضحا انه ليس بمقدور الاغنية ذات الايقاع البطيء، ان تطغي على دوي الانفجارات المتقطع في الخارج .

« لا يبتلع الحزن سوى حزن اكبر »

مررت شفتيهـا حول حافة الكأس ، واكملت بصوته

« او حب اكبـر » .

« لو نستطيـع ،

لو استطيع ان اكسر كثافة الحزن مثلما افعـل بالخمر فيصير مستساغا ، لـو ... » فزعت على ـ فيما ظنته ـ طرقاته على الباب ، دق قلبهـا بشدة ، ارهفت السمع ، هرعت نحـو الباب وهـي تهتف : « مـن ؟ » وحين فتحته اندفعت للداخل موجة كثيفة من الظـلام المقبض .

عادت الى السرير .

« كم مرة حتى الآن خيل اليها انهـا تسمع مثـل هذه الطرقـات ؟»

« تحبـه ؟ »

كادت ان تصرخ في بكاء « نعم ، احبه ، احبه »

عادت تتجرع الكأس بالحاح . تساقطت قطرات من السائل علـى صدرهـا ، فلم تعبأ .

« هل يمكن ان يظل الموتى اقوى حضورا من الاحياء ؟»

هطل اليأس من العينين .

« قال : وانا اعيش الان بنصفين »

لم تفهـم

ـ « وهي قد رحلت ايضا بنصفين »

ـ « اذن ؟ »

ـ « كانت تلك هزيمتي »

ـ « لكنك تحيـا »

ـ « ليعش الموت اذن »

عضّت على الشفة السفلى بقسوة حتى ادمتهـا واحست بملوحة الدم ، حاولت ان تكتم شهقات البكـاء الحار ، لكنهـا حيـن اصغت لصوت بكائهـا ، اوغلت في البكـاء اكثـر .

« من يعيدني الى الخصب والاخضرار ؟»

. . .

. . .

ارتفع صهيل التليفون ، ذعرت . سقطت يدهـا سقوطـا على الهاتف ،

هتفت ..

آلـو ..

انتظرت صوته ، الحت . « آلو .. آلو »

ثم ان صوتها راح يبتهل في ضراعـة باكيـة .

« آلو .. آلـو .. »

لكن شيئا مدمرا كان قد اصاب لوحة الهاتف فـي الخارج ، فتحول الى جثة هامدة ، فيما استمر صوتهـا يبتهل في بكاء : « آلـو .. آلـو .. « آلو .. آلـو .. »

بيروت ـ تموز ١٩٧٦

* * *

٤ ـ اللصـق

ـ « لا احب الرجولة الهادئة »

قالت ذلك ، وشبكت اصابع يديها فوق رأسها .

« فلنقل ان نزعة العنف هي خاصية تميّز الرجال » .

نظرت اليه بطرف عينيها دون ان تحرك رأسها .

« رجلي الاول كان ودودا لدرجة تثير التقـزز والضجر ، لم يتخل يومـا واحدا عن زيارة امه ايـام الآحاد ، وفي الاعياد وتناول الغداء علـى مائدتها » .

ضحكت ، راحت تعدل جلستها على الاريكة الوثيرة. اسندت ذقنها فوق ركبتيهـا المضمومتين . قالت .

« كانت امه تغذي فيه هذا الاحساس ،تصر بأنـه ما يزال صغيرهـا ولا تكف عـن توصياتها عن مـا يجب وعن مـا لا يحب ، كـان هذا يثير اعصابي ، يلتصق بـي يدفـن رأسه في صدري ، فأحس انه يستدرجني كيمـا يستثير في الاحساس بالامومة » .

صمتت ، راحت اصابعهـا تتخلل شعرها ، تهيأت لاستئناف الحديث ، لكنهـا توقفت بغتة وظلت شفتاهـا منفرجتيـن قليـلا .

« هل تسمعني ؟

انبعثت غمغمة صوتية مبهمة .

« حسنا ، ولما كنت اريد زوجا لا ابنا ، سميـت للطلاق منه ، هل لدينا مشروب يكفي للسهرة ؟»

لم تنتظر الاجابة .

« لا بد ان لدينا شرابا . ماذا كنت اقول ؟ آه ... لم يكن هذا بالامر الهيّن ، كان يحبني وكنت اعرف ، وكانت الصدمة قاسية ومنهكة بالنسبة اليه ، فرحل دون ان يعرف احد الى اين .. »

نهضت .

كان قميص نومها ملتصقا بجسدها ويصل الى القدمين .

« سأصب كأسا كبيرة ، بي ظمأ هائل الليلة » .

ارتطم فم الزجاجة بحافة الكأس فصدر عنهما رنين زجاجي امتزج بتلاطم السائل في القاع ثم هوت ثلاث قطع ثلجية في الكأس .

صاحت في عبث : « هل اصب لك كأسا ؟»

لم تخرج الاجابة عن تلك الغمغمة الصوتية المكثفة المبهمة ..

« اما أنا فسأشرب حتى اتصبب كحولا ، الى اين انتهينا ؟

نعم .. اعترف انني كنت افتقده في بعض الاحيان ، اذكر انهم في المدرسة كانوا يطلقون علي لقب «الدجاجة» .. كنت ارفض ان اعير احدا شيئا من اشيائي ، وانشب اظافري في عنق من تجرؤ ان تمد يدها الى اشيائي .

قلت ، بانني كنت افتقده احيانا ، حتى داهمني ذلك الفتى .

انت تعرف من اعني .

كان في حالة غضب دائم ، لا اذكر انني ضبطته مرة متلبسا بابتسامة ، لا اذكر .

اعلن لي عن حبه بطريقة فريدة ، اجل ، امسكني من كتفي بقوة ، وهزني مرتين او ثلاثا ثم صاح بانفعال حقيقي « عليك اللعنة لقد احببتك » .

اوشكت ان انفجر ضاحكة غير ان حسم عينيه افقدني القدرة على النطق كلية وعندئذ قبلني لم تكن قبلة على وجه التحديد ، كانت شفتاه تعتصران شفتي وتلوكانهما حتى انني احسست بلسعة ملوحة الدم في فمي .»

توقفت عن الحديث ، راحت تهز الكأس في حركات دائرية فيما راحت المكعبات الثلجية الملتصقة تدور بدورها .

« كان مقاتلا . وحيدا ، لم يكن ليفصح لي عن هيامه بي بالكلمات ، لم يحدث هذا بتاتا ، كانت له طريقته الخاصة في التعبير والبوح . اشعر وراسي يتوسد صدره انني منقطعة عن العالم ، وانه هو وحده يشكل عالمي الرحب . ولم يحدث ان القى لي بموعد قط ، لم يقل سألقاك غدا او شيئا من هذا القبيل . كان يضمني اليه بطريقة اقرب الى القسوة منها الى المعانقة .. هكذا كان يودعني .

كان علي ان انتظره يوما ، يومين ، ثلاثة ، اسبوعا ، كنت في حالة تأهب دائم لاستقباله لم أكن اعرف متى ، لكنني كنت واثقة انه سيأتي ، وكنت احب هذا ..»

كان صوتها قد بدأ يفدو حالما .

« اجل .. كنت احب ان انتظره ، لقد ولد في تلك اللهفة المتوترة المترقبة ، لهفة لم اعهدها في من قبل . كان لها طعم خاص .

كنت أحب لحظة اللقاء المفعمة بالشوق ، بالدفء ، باللامبالاة والبرود ايضا .. واحب لحظة الفراق ، واعشق ايام الانتظار » .

اضطجعت من جديد على الاريكة ، راحت تتحسس باليد الاخرى القماش الفاخر .

« قال لي مرة ، ولدت ، كبرت في غرفة تنكية السقف ، كان افراد الاسرة التسعة ينامون ملتصقين بجوار بعضهم البعض كالسردين المعلب .

وخيل الي انه سيبتسم ، لكنه لم يفعل وانما انتصب واقفا في منتصف الغرفة ، وقال بيتك فخم » .

رفعت الكأس ، انفرجت شفتاها وراحت تمرر لسانها على سطح المكعب الثلجي وتتذوق القطرات بمتعة فائقة .

« ذات ليلة ، وجدتني ادس راسي في صدره ، تماما مثلما كان يفعل زوجي .. اكتشفت ان هذا الرجل لا يمكن ان يكون مجرد زوج ، او حبيب او عشيق ، وانما كان العالم مختصرا ، اجل ، غالبا ما يكون ابي ، غالبا ما يكون حبيبي ، غالبا ما يكون زوجي ، غالبا ما يكون غريمي ، خصمي ، منافسي » .

امسكت الكأس بكلتا اليدين ثم اسندتها على خدها فامتصت المسامات بعض البرودة الثلجية وسرت كهربة منعشة في كل انحائها . تنهدت بقوة .

« انت تفهم هذا ..

في اخر زيارة حمل الي هدية ، سلسلة فضية تتأرجح وسطها قطعة مستديرة موشاة الاطراف ، وتبرز وسطها خطوط لخريطة جغرافية . قال وهو يضعها حول عنقي « هذه بلدي » وقبلني برقة صدمتني » .

نهضت .

راحت تسير ببطء بشكل دائري ، تضع قدمها اليسرى ، ثم اليمنى ، وهكذا ، ثم اولته ظهرها .

« كان قد مضى على غيابه اثنا عشر يوما . في الصباح ، كل صباح ، عند الظهر ، في المساء ، كل مساء ، كنت متأهبة لاستقباله ، لم يكن يحب ان اضع اية مساحيق على وجهي ، لم يقل لي ذلك ، لكن حدث مرة ان امسك بقطعة قطن مبتلة وراح يمسح عن وجهي المساحيق ، ثم تأملني مليا ، وتنهد بارتياح .

كانت هذه اول مرة يطول غيابه عني على هذا النحو ، اكتشفت انني لا اعرف اسمه الكامل ولا عنوانه ، ولا رقم الهاتف ، ولا حتى اسم صديق واحد له .. كنت اعرف

فقط عنه ، تلك الاشياء الصغيرة التي كنت اكتشفها في لقاءاتنا .. وانه مقاتل » .

توقفت عن خطواتها الدائرية ، تقدمت صوب النافذة ، مدت يدها . راحت تتحسس برفق الستائر الزرقاء ، ثم افرغت الكأس في جوفها دفعة واحدة .

« خرجت من البيت ، رحت اتجول في الشوارع ، كان كل ما في داخلي مختلطا ، وجهه مختلط بوجه زوجي ، بقسوته ، بأبوته ، بملابسه الكاكية ، بالسلسلة الفضية ، بالخريطة الجغرافية ، بأرديتي الانيقة ، بعينيه المتقدتين ، بحديثه الحماسي ، بحديثه الفاتر بالحبيب والغريم ، وفجأة ..

اجل ، كان هذا كالوميض الخاطف ، لمعت عينيه ، انفرست نظراته الحاسمة فيّ ، تسمرت مكاني ، وكنت اجتاز شارعا مزدحما ، تعالى زعيق ابواق السيارات وشتائم السائقين ، راحت السيارات تحاصرني ، فاندفعت ولعلني صرخت لا اذكر .

للمرة الاولى اعرف اسمه كاملا ، للمرة الاولى اعرف تاريخ ومكان ولادته .. شهاداته .. تاريخ التحاقه بالثورة وانه ينحدر من اسرة كادحة ..

كان ملصقه على الجدار .. عشرات من الملصقات ، عشرات من العيون المتماثلة ذات النظرات الحاسمة التي راحت تتفرّس فيّ ..

حاولت ان اوقف هذا الشلال من البكاء المرتجف ، حاولت ان اوقف هذا الاهتزاز المهين لركبتي .. حاولت ، حاولت .

رحت انزع الملصق برفق عن الجدار . فيما كان الناس يحيطون بي يفتحون الافواه على اتساعها ثم يطبقونها ويخلطون الكلمات بعضها البعض . اعترف انني بكيت كما لم ابك من قبل .. « دعني ، دعني اريك ذلك الملصق اذا كان هذا لا يزعجك » .

استدارت .

كانت عيناها ملتهبتين ، ووجهها مبتلا حتى اسفل الذقن ،

« دعني اريك ذلك الملـ .. »

تجمدت الكلمات في حلقها وهي تتفرس في ذهول تام بالغرفة الخالية .

بيروت ـ حزيران ١٩٧٦

صدر حديثا

التراث الفلسطيني والطبقات

تاليف

علي الخليلي

« غاية هذه الدراسة ، في الاساس ، مساهمتها في تكريس التراث الشعبي العربي الفلسطيني داخل نمو الثورة وتصاعدها .. واداة الدراسة المركزية هي الامثال الشعبية الفلسطينية باعتبارها جزءا اساسيا من التراث الشعبي الفلسطيني .. وهي تؤكد القدرة الفذّة لمجتمعنا العربي الفلسطيني على الصمود والحيوية والنمو والتطور طالما هو محتفظ بتراثه الشعبي ، هذا التراث الذي تحاول الامبريالية والصهيونية ، متساندتين متلاحمتين ، قتله وتدميره ، انكارا لوجود شعب فلسطيني .. ولذلك فان كل احياء واثراء ونشر وتعميق وتحليل للتراث الشعبي الفلسطيني بكافة اشكاله والوانه هو دعم للثورة وتكريس لها ، كما انه اضاءة للمنافي الفلسطينية ولحمة لها .. »

ـ من المقدمة ـ

منشورات دار الاداب